بعد عشرين قرنا

حضارة عربية
تنكشف عنها الرمال

للأستاذ وندل فيليبس
رئيس البعثة الأثرية الأمريكية

كانت ليلتنا الأولى بين عرب وادى بيحان فى عدن تبدو فى ظاهرها كأنما انتزعت مباشرة من دنيا ألف ليلة وليلة . فما كانت هوليود ذاتها مستطيعة أن تفعل خيرا مما فعله مضيفنا الشريف حسين بن أحمد حاكم بيحان . لقد جلسنا متربعين فى باحة القصر نشاهد الراقصات الفجريات اللواتى خلبن ألبابنا بحركاتهن الرتيبة المثيرة فى أضواء الشموع المرتعشة ، بينما كانت الطبول تملأ الظلمة بأصدائها الخافتة ، وأنغام الناى تنساب حلوة ناعمة

وكان يهيمن علينا جو من أجواء الأساطير . فأنت تحس فيه بنكهة الخيال ، وطعم الخطر ، فقد قام على مقربة منا مئتان من الحرس القبليين اليقظين ، كالحى الوجوه ، يحملون جنبياتهم « خناجرهم » الكبيرة فى مناطقهم المنتفخة بالرصاص ، ويتنكبون بنادقهم المهشمة تسندها سواعدهم المروقة التى كانت تبدو واضحة من بين أسمالهم الصحراوية الممزقة

كنا نعرف ما يتصف به بدو الجنوب فى الجزيرة العربية من الخطر ، وما هم عليه من كره شديد ، يذكيه ما فى الإسلام من حماسة وحمية ، لكل من يتطاول على بلادهم من الأجانب . كما كنا نعرف عن المحاولات التى سبق وقوعها على حياة الشريف حسين . ولكن هؤلاء الحراس ، مع استعدادهم لكل ما قد تفشى عنه الصحراء من الأخطار ، كانوا يتابعون الراقصات بأبصارهم . وقد استطعت وأنا أتطلع حولى دهشا لذلك المنظر ، أن أشاهد أسنانهم البراقة وهم يبسمون لبعضهم ، ويكز بعضهم بعضا ، عندما تمر إحداهن على مقربة منهم

وكان الشريف حسين ، وهو من أطول رأجل من رأيت من العرب ، يبتسم هو أيضا ، ويلوح لى بيده ، إشارة على أنه يود الحديث معى بوصفى قائدا للبعثة ، كان يجلس فى مقابلتى موليا ظهره للفتيات اللواتى طالما رقصن من قبل لتسليته ، وكان الدكتور و . أولبرايت W. Albright رئيس أثرى البعثة ومترجمها يجانبى ، وهو يتكلم خمسا وعشرين لغة ، فوكزته ، فأومأ إلى الشريف حسين ، فرد هذا مرحبا بقوله : « أهلا و سهلا » وكأنما لم يقلها لنا من قبل ، مع أنى أصبحت أعرف بأن معناها : « مرحبا بكم وطاب مرعاكم » فرد عليه العلامة أولبرايت تحيته

كان الشريف حسين ، الأريحى المرح ، الذى بهرته قافلتنا الميكانيكية ، قد أبدى لنا منتهى الكرم ، كأنما كنا الرئيس رومان ووزراءه . إن وصولنا ذات مساء إلى وادى بيحان ، بعد رحلة طويلة مضنية ، من خليج عدن ، حدث من الأحداث الكبرى فى تاريخ وادى بيحان الحديث . فقد كنا أول جماعة من الأمير كان تقع عليهم أعين البيحانيين . لقد جئنا ، نحن الخمسة عشر ، لإزاحة الغطاء عن حضارة تعرف بالقطبان ، قامت على عبادة القمر ، ثم انقرضت قبل ٢٠٠٠ سنة ، بعد كارثة لا بد وأن تكون قد هزت العالم العربى القديم من أساسه

تلك الكارثة هى خراب « تمنا » ، عاصمة القطبان القديمة . فمنذ ذلك الحين أسدل الصمت ستارا كثيفا من النسيان على تاريخ الوادى ، حتى أن سكانه المعاصرين ، ليست لديهم أية فكرة عن أسلافهم المدهشين ، الذين عملوا على إشادة طريق البهارات فى أيام التوراة ، وعلى تحويل هذه الأراضى القاحلة إلى ما يشبه الدوربدو (١) El Dorado فى الأعصر الغابرة

لم أتأثر قط فى سنى التسع والعشرين ، كما تأثرت هذه المرة ، فإن زيارة وادى بيحان النائى الذى يكاد يكون مجهولا جهلا تاما ، كانت هدفى منذ سنين . ولكنى كنت وأنا أقابل ابتسامة

(١) بلاد أسطورية ، كان طلاب الثروة يتهافتون على البحث عنها فى أمريكا الجنوبية . ويعود أصل الأسطورة إلى ما كان يروى عن أحد زعماء الهنود الحمر من أنه كان يغفر جسمه بمسحوق الذهب فى الاحتفالات الدينية . ولقد تمخضت هذه الأسطورة فأدت إلى الاعتقاد بوجود مدينة واسعة الثراء فى أمريكا الجنوبية ، مما كان باعثا على إرسال عدد عظيم من البعثات الاستكشافية للبحث عنها . وتطلق كلمة « الدوربدو » الآن لوصف بقعة من البقاع بالرخاء والازدهار والغنى

الشريف حسين بمثلها ، أحس بالسعادة تغمر كياني لوجودي في بادي بيحان ، كما أحس بالألم للحالة السيئة التي تدهور إليها بيحانيون. لقد عاشت ملكة سبأ على مقربة من هذا المكان يوما ما، لا بد وأنها مرت بهذه الرمال مرارا عند ما كانت حقولا نضرة غنية بالمياه

لقد أعادني التفكير في الملكة التي أمطرت الملك سليمان بالهدايا — كما تقول التوراة — والتي يشك بعض العلماء في وجودها ، إلى حاضري أمام الراقصات الفجريات . لابد أنها كانت تبدو مثلهن ، فقد جاءت كما جئن من مكان يسمى سبأ ، وهو جزء يقع اليوم في اليمن . إن هؤلاء الفجريات، سمر البشرة، متناسقات الأعضاء ، مشجرات المآزر والقمصان ، وإن يكن تفصيلها غير متقن في أذواقنا

كانت كل منهن تتحلى بـ ٥٠ رطلا من الحلى الفضية حول رقبتها ، ومعصميها ، وساقيها . ولا أدري كيف استطعن تحمل ذلك كله ، ولكن رقصهن استمر متزنا زهاء ساعتين

كان الرقص في بادئ الأمر رائعا ، فأيديهن رشيقة ، وحركات أردافهن تستلفت الأنظار ، وقد صفقنا لهن مرارا . ثم أخذن في الاقتراب منا شيئا فشيئا . أثناء انسيابهن في باحة القصر . وإني لأتذكر كيف مال جورج فرير مساعدي ، البالغ من العمر التاسعة عشرة بجسمه نحوي ثم أخذ يصفر في هدوء

ثم بدأ اهتمامي يزول . ولعل مرد ذلك عائد لاطراد الرقص على نسق واحد رتيب ، أو للاعياء الذي انتابني ، ولكن السبب الرئيسي هو أن إحدى الفتيات انحنت أمامي حتى شممت شعرها . إن البدويات يستعملن بول الإبل لتجميد غدائرهن ، فتأكدت أن هؤلاء الفجريات لا يخرجن على تلك القاعدة . لذلك تلاشى تأثيرهن ، وما انتهى العرض حتى لم يبق مما يثير الإعجاب سوى جلد الراقصات — وجلدنا

كانت أعمار الراقصات الأربع تتراوح ما بين الثانية عشرة والثلاثين تقريبا . وقد قال لي الشريف حسين إنهن غادرن اليمن لأن الحكومة تأبى عليهن الرقص مع الرجال ، وتعارض في ممارستهن بعض المهن الأخرى التي يقمن بها بغية الكسب .

إن مثلهن كمثل المومسات في الصحراء في تهافتهن على المال — قل أم كثر

إن البون شاسع بين بول الإبل ، وبين اللبان والمر اللذين كانا يثقلان في سفاه بيحان جوا من السحر . لقد سجل ديونيسيوس Dionysius الكاتب اليوناني ، ثناءه على البلاد حوالي عام ٩٠ بعد الميلاد ، في الوقت الذي كان يكتب فيه إنجيل يوحنا . فقال

« إنك لا تتنفس في « العربية السعيدة » غير أريج اللبان أو المر من البهارات العطرة . وإن لأهلها قطعانا عظيمة من الضأن تتغذى بما في مراعيها من العشب والكلأ ، وإن الطير تهوي إليها من الجزائر النائية تحمل إليها أوراق القرفة . »

قامت اقتصاديات أربع من الممالك الهامة على ما كانت تدره قوافل البخور في جنوب الجزيرة العربية من الثراء زهاء ألفين من السنين فقد كانت القوافل تنساب في مهل من غابة البخور في حضر موت ، متجهة نحو الشمال على طول الجزيرة ، وهي تقدم في طريقها الأتاوة ، والجباية ، لعدد لا يحصى من القبائل ، ثم تعود محملة بالذهب ، والفضة ، من مصر واليونان وروما ، كما ذهبت محملة بالبخور والبهارات . فقد كانت هذه البلدان تتبوأ المكان الأسمى بين بلدان سواحل البحر الأبيض المتوسط

لقد أنفق تدفق الأموال من الإمبراطورية الرومانية رجال الاقتصاد فيها ، فجأروا بالشكوى من أن « العربية السعيدة » لسوء الحظ ، هي السبب في ارتفاع أسعار الذهب . وفي تدهور قيمة العملة المتداولة . وكانت قصص المدن الخرافية والأضرحة المليئة بالذهب في « العربية السعيدة » تدور على الألسنة . ولكن أحدا لم يجد في نفسه الجرأة الكافية على إثارة العرب وإغضابهم

وقد حاول الإمبراطور أغسطس قيصر أن يتحقق من صدق القصص التي كانت تروى عن ثراء الإبل من العرب ، فبعث إيليوس غالوس Aelius Gallus أحد قواده إلى « العربية السعيدة » فسار حتى مأرب ، ولكن ضربة الحر ، والمرض ، ومعارك الصحراء ، كلفته جيشا تعداده ١٠٤٠٠٠ جندي ، لم ينج من الهلاك منهم إلا قليلون

كانت مأرب عاصمة سبأ ، أو شبأ ، كما تسميها التوراة . وكانت سبأ إحدى ممالك البهار الأربع ، أما الثلاث الأخرى فهى معين ، وحضر موت ، وقطبان. وكان هدف بعثتنا جغرافيا، هو الوصول إلى وادى بحيان ، قلب القطبان وعاصمتها تمنا

كانت سبأ ومعين تحتلان بقعة من الأرض هى الآن اليمن ، وجزء من البلاد السعودية ، والجزء الغربى من محمية عدن — وبوجه التقريب ، وادى حضر موت العظيم . وعلينا للوصول إلى بحيان الذى يقع خلف أشد جبال الزاوية الجنوبية الغربية من جزيرة العرب وعورة ، أن نجتاز الجزء الشرقى والغربى من وادى حضر موت — ومرحبا ما عرفنا لماذا يسميه سفر التكوين فى التوراة « بدار الموت . »

كنا نستمع ، من حين إلى حين ، إلى قصص الفتك بين العرب بينما كانت سياراتنا تقفز فوق ما يسمى تجوزا بالطريق ، وسط الحرارة المتقدة . لا أدرى ما الذى حدا بى إلى مغادرة أرصفة نيويورك ، والمجىء إلى هذه الدنيا

لقد جمعت فى نيويورك . أمام مكاتب رجال الأعمال الضخمة ، والمجالس المالية ، القسم الأكبر من نفقات البعثة . ومن طريق التليفون والمراسلة جمعت رجالى وأرسلتهم بالباخرة أو الطائرة كانت البعثة مؤلفة من علماء أميركيين وأوربيين ومن بعض الطلاب ، وكانوا جميعا مستعدين للعمل لقاء أجر زهيد ، أو لقاء لا شىء بالمرة . وكان من ضمن أفرادها العلامة أولبرايت ، رئيس مدرسة اللاهوت فى جامعة هوبكنز . وهو فى الستين من عمره . ويتميز بجرأة تكاد تبلغ حد التهور . ولاسمه بين البدو تأثير كبير ، حتى أنه ليقطع وحده أميالا وأميالا فى الصحراء كل يوم لمراقبة أعماله التى تتألف ، بالإضافة إلى العمل المتواصل دون كلل ، من القفز فوق الجدران المتداعية ، وغم الأفاعى والمناكب الخطرة . ومن أعضائها أيضا وليم ترى ، الذى اشتهر بصوره الفوتغرافية أثناء الحرب العالمية الثانية . وشارلس إنج ، رئيس الحفريات عند بدء البعثة بأعمالها ورئيس الآثار فى عدن ، الذى اقتنع وأقنع العلامة أولبرايت بالشروع فى الحفر فى تمنا ، بدلا من أماكن أخرى كان من المحتمل مباشرة الحفر فيها .

والدكتور إسكندر هانيان ، أستاذ الدراسات الشرقية فى جامعة سان أندروز الاسكتلندية ، والدكتور ألبرت جامى ، أستاذ الدراسات الشرقية فى جامعة تونس . والدكتور فريزوهيبرويك الجيولوجى الهولندى ، والدكتور رشارد لى بارون بوربن ، العالم الأثرى من أهالى جزيرة رود ، وكنيت براون من طلاب جامعة كاليفورنيا . والسيدة وليم ترى ، المكتشفة العالمية الشهيرة . والدكتور لويس كراوس ، والدكتور جيمس ماكنتيش ، وكلاهما من جامعة ماريلاند ، وقد قاما فى بيحان بالإشراف على صيدليتنا التى تتألف بها قلوب الأهالى . وشارلس ماكلوم من كاليفورنيا ، وهو رئيس مواصلاتنا . وجورج فارير من كاليفورنيا وهو مساعدى . وأوكتاف رومانى ، من نيويورك ، وهو مصورنا الفوتغرافى

يعود الفضل فى إرسال هذه البعثة فى الربيع الماضى إلى بيحان ، ورحلتها التى تزمع القيام بها هذه السنة إلى مؤسسة جديدة ، هى المؤسسة الأميركية لدراسة الإنسان ، التى تم تأسيسها فى العام الماضى بعد تفكير دقيق . لقد أسندت رئاستها إلى بينما تولى نيابة الرئاسة فى أول الأمر العلامة أولبرايت. وتولى إدارتها كل من الأميرال شستر نيمتز ، وصموئيل برايور ، ولاول توماس ، وأمير اللواء ماكيزى ، وبايارد كولجيت ، وشارلس تاجر من أهالى نيويورك ، وجيمس موفيت من سان فرانسسكو

وكانت بعثتنا من غير شك مجهزة بالسيارات والمبردات والمحركات الكهربائية والسلاح وما أشبه تجهيزاً لم تنله أى بعثة أخرى . وقد قطعنا نصف الكرة الأرضية حتى ضربنا خيامنا فى بيحان ، واستأجرنا ٢٠٠ عربى للقيام بأعمال الحفر وإزالة الرمال . وهنا وبينما كانت القطبان تترقب من يزيح عنها الستار ، جاءنى شارلس ماكلوم ، رئيس مواصلاتنا مسرعا يلقى الى بالحقيقة المرة :

— لقد بحثت فى كل مكان ، ياوندل ، فلم أجد شيئا .

فصرخت وقد أخذ الدم يتجمد فى عروقى : لم تجد ماذا ؟

فأجاب : لم أجد سخانين . لم أجد فؤوساً. لم أجد مقاطف.

ولكننا استطعنا الحصول على حاجاتنا من ذلك من مدينة عدن ومن القرى العربية المختلفة . وكان الحصول على المقاطف أعوص ما واجهنا من المشاكل . فقد تحتم عملها .

وكان الحصول على بقية ما نحتاج إليه من المال أصعب من الحصول على حاجتنا من الأجهزة . لقد كانت سفينتنا في عرض البحر وعلى ظهرها جميع أفراد البعثة حينما خف إلى نجدتي والاس رشارد ، رئيس أحد المتاحف في بتسبورغ Pittsburgh ، فبفضل جهوده وافق المتحف على منحنا معونة مالية ، وعلى القيام بعرض مكتشفاتنا من الآثار العربية . وكذلك فإن رونالد هاريمان ، وألن وسارة سكيف ، و ه . ج . هاينز الثاني ، ولجنة الوصاية على وقف ا . و . ويلون الخيري والثقافي ، وكثير غيرهم ، قد منحونا مساعدات مالية جزيلة

وأخيرا تسنى لي السفر جوا إلى عدن أنا وجلادس تري مديرة أعمالنا . ولما وصلنا إلى لندن في طريقنا إلى عدن زارنا مندوبو الصحف ، فانتزعت جلادس ، الشقراء الفاتنة ، الإعجاب . فقد نشرت لها الديلي ميل صورة كبيرة ، كتبت تحتها : « أربعة عشر رجلا وفتاة واحدة يبحثون عن ملكة سبأ » ثم استطردت تقول : « فتاة أميركية في هيئة عارضات الأزياء « المانيكان » ، وعزيمة الصارمين ، تطير إلى دنيا سبأ الضائعة » ثم أردفت تنقل قولي : « لا يدري أحد ما الذي سنعثر عليه ، فإننا لا نتوقع أن نكتشف بقايا ملكة سبأ وهي جالسة في حمامها ممسكة بيد الملك سليمان ، ولكننا نأمل أن نجد بقايا جمالها »

لم يكن لدينا ما يدفعنا على الشك ، كما يشك الكثيرون ، في حقيقة وجودها . بل يجب أن يثبت البحث الأثري وجودها عاجلا ، ونأمل أن نكون من البادئين بذلك . فلقد سبق لعلم الآثار أن أثبت أن الملك سليمان تولى الحكم من سنة ٩٦١ إلى سنة ٩٢٢ قبل الميلاد

ما أكثر ما حيك من الخرافات والأوهام حول هذه الملكة التي جاء ذكرها في سفر الملوك الأول من التوراة : لقد وردت على الملك سليمان ، كما تقول التوراة ، « وأعطت الملك مئة وعشرين وزنة ذهب وأطيابا كثيرة جدا وحجارة كريمة . لم يأت بعد مثل ذلك الطيب في الكثرة التي أعطته ملكة سبأ الملك سليمان . »

إن رحلة ملكة سبأ إلى القدس حوالي سنة ٩٥٠ قبل الميلاد تتفق والتوسع العظيم في تجارة القوافل في التاريخ القديم وأغلب الظن أنها قامت بتلك الزيارة بوصفها رئيسة لأغنى وأقوى دولة في جنوب الجزيرة العربية للعمل على تنشيط طريق البهارات ، كما قامت بها لرؤية الملك سليمان

إن أغلب أشجار الطيب تنمو في الجنوب الشرقي من حضرموت والمصادرات التي تتساقط من جذوع المر واللبان على هيئة دموع متجمدة ، تجمع وتحمل على ظهور الإبل إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط على بعد ٢٠٠٠ ميل تقريبا . كان طريق القوافل يتجه في العادة غربا عبر الأراضي الحضرمية ، ثم ينحرف نحو الشمال متاخما للساحل الشرقي من البحر الأحمر . وعلينا أن نسلك جانبا من ذلك الطريق ، في طريقنا إلى وادي بيحان

طرنا من لندن ، أنا وجلادس ، إلى عدن عاصمة المحمية . حيث منيت بموقف عصيب مع حاكمها السر ريجينالد شامبيون . لقد سبق لي القيام بزيارة تمهيدية إلى عدن قبل بضعة أشهر . عندما كنت أفتش عن موقع من المواقع الأثرية ، فتحصلت في ذلك الحين من القائم بأعمال الحاكم ، لغياب السر ريجينالد في إنكلترا ، على إجازة بالذهاب إلى وادي بيحان . لقد كانت كلمات السر ريجينالد الأولى حينما رآني :

« لو كنت في عدن حينما جئتها مؤخراً أيها الشاب ، لما سمحت للبعثة بالدخول إليها قطعاً . فهناك كثير من مشاكل السياسة والأمن تكتنف المنطقة التي تود اكتشافها » وتوقف عن الحديث . فهيأت للكلام ، ولكنه أردف مبتسما :

« وعلى كل فما دمت وجماعتك قد وصلتم فعلى الرحب والسعة »

لم يكن السر ريجينالد متصلبا . فقد تعاون البريطانيون معنا جهد استطاعتهم فأمدونا بخمسة وعشرين عربيا من جنود الحكومة يقودهم أحد الأشداء في عدن ، وجهزونا بكتاب لشيوخ العرب جميعهم في الداخل ، يفيد بأن بعثتنا ، ليست عسكرية ولا تجارية ، ولكنها علمية بحتة

السلام بجبة (صوت البحرين) ع . ت